تطور الإمامة الإباضة بالمغرب في طور الكتمان الأخير
(ق 3 ـ 5هـ/ 9ـ11م)
نظام العزابة نظام بديل عن إمامة الظهور

أ/ صلاح الدين شعباني
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

مقدمة:

يعتبر نظام العزابة الإباضي بالمغرب الأوسط، أحد ابرز إبداعات العقل الإسلامي في القرن الرابع الهجري، كونه استطاع الحفاظ على بقاء الجامعة الاباضية بعد سقوط الكيان السياسي بتاهرت إلى يومنا هذا، والمثير للاهتمام أن هذا النظام سمح للمجتمع الإباضي بالتكيف مع مختلف الظروف والمحافظة على مبادئه وعقيدته، والعيش في كنفها دون الحاجة لإعلان الإمامة العظمى، والملاحظ أيضا أن هذا النظام الجديد قد جعل مسلك الكتمان حالة دائمة ومستمرة، فهل نعتبر هذا تخل من طرف الاباضية عن سيرة مسالك الدين؟ أم أنه تطور جديد للمذهب الاباضي، فرضته الظروف التي لم تكن في الحسبان، وهل معنى هذا أن نظام مسالك الدين، الذي تعتبره الاباضية منهجا متكاملا، كونه يمكنهم من تطبيق مبدأ الإمامة مهما تغيرت الظروف، قد عجز عن تحقيق التكيف، الذي ابتكرت مسالك الدين من أجله؟

وقبل الشروع في تحليل الموضوع، نقدم شرحا وجيزا، يتضمن التطور التاريخي للاصطلاحات الموظفة في هذا المقال، وأهمها:

I- السيرة والعزابة والحلقة)

أ- معنى السيرة:

نقل ابن منظور عن ابن جني قوله: «.. السيرة السنّة، وسار الشيء وسيّرته فعمّ، والسّيرة الطريقة، والهيئة، وسار الكلام في الناس شاع..»[1].

وعند الاباضية هو تاريخ وأخبار الماضين وحكاية آثارهم ومناقبهم، وتقلبات حياتهم، وهو الطريقة والسلوك[2] وقد عرفها أحد الاباضية المعاصرين بأنها: « مجموع السلوكيات والتعاملات التي تشكل منها منهج حياة الإنسان على المستوى الأخلاقـــي والعملي»[3] والسيرة في كتب الاباضية تدل على الإسلام ذاته وقد تدل على الاباضية، فنجد كتب السير تبدأ بالصحابة وأعمالهم الصالحة، ثم تنتقل إلى تراجم أعلام الاباضية مع التركيز على إبراز المجالات القوية في شخصية معينة[4].

ب- معنى كلمة عزابة:

يقول ابن منظور:« عزب يعزب عزوبا، من العزوب كفعول مضموم الفاء والعين، ويقال رجل عزب ومعزابة، لا أهل له، ونظيره: مطرابة، مطواعة..، وامرأة عزبة ورجل عزب، لا زوج لها وله..، والجمع أعزاب، والعزاب الذين لا زوج لهم، فهو عازب والجمع عزّاب والاسم العزبة والعزوبة، وقد وردت في القرآن الكريم بمعنى الذهاب في قوله تعالى: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾[5] ومعناه لا يغيب عنه شيء... »[6] ويضيف الدرجيني: «.. وهذا الاسم مشتق من العزوب عن الشيء وهو البعد عنه..»[7] ومما سبق فإن مدار هذه الكلمة حول الزهد في الدنيا وملذاتها ومفاتنها، والتوجه والإقبال على الآخرة.

ويذكر الدرجيني أيضا أن أول ما استعمل لقب العزابة كان في أيام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر في بداية القرن الخامس الهجري، لكن الرواية التي ينقلها لنا أبوزكريا تثبت أن هذا اللقب كان شائعا على أيام ثورة ابن كيداد في بداية القرن الرابع الهجري[8] وقد حاول الأستاذ خليفات، إثبات الأصل البربري لهذه الكلمة، وأنها معربة عن لفظ "إعزابن" البربرية، غير أن الأستاذ حجازي يرفض هذا الرأي، ويقول أن أصل الكلمة عربي[9].

وفي المصادر والمراجع الاباضية عدة تعار يف لهذه الكلمة كلها تصب في نفس المعنى، منها تعريف الدرجيني الذي يقول فيه:«.. واحدهم عزابي هذه اللفظة استعملتها لقبا لكل من لازم الطريق، وطلب العلم وسير أهل الخير، وحافظ عليها وعمل بها، فإن حسن جميع هذه الصفات سمي عزابيا، وإن حافظ على السير والعمل بها فقط سمي به، وإن حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسمى بهذا الاسم، واعلم أن لهذا الصنف سيَمًا انفردوا بها، وأحوالا عرفوا بها، لا يتفضل عليهم فيها سواهم، وذلك في تسميتهم وخطابهم ومؤاكلتهم ولباسهم وأوقات نومهم وقيامهم وأورادهم وصيامهم وعبادتهم وعندهم في ذلك قوانين يعتادونها، وحدود لا يتعدونها، وهذا الاسم مشتق من العزوب عن الشيء وهو البعد عنه، فاستعير لمن بعد عن الأمور الدنيوية الشاغلة عن الآخرة..»[10]، وإلى نفس المعنى أشار الشيخ يحي معمر في قوله: «العزابة هيئة محدودة العدد، تمثل خيرة أهل البلد علما وصلاحا، وهذه الهيئة تقوم بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الاباضي»[11].

وقد حاول المستشرق الإيطالي روبانيكس، تشبيه هذا النظام بالرهبانية المسيحية، من حيث إعراض أتباعه عن الزواج، في محاولة لإثبات التأثير المسيحي في العقيدة والفكر الاباضيين، ويعتبر هذا الهدف، بمثابة المحور الذي دارت حوله الدراسات التي قام بها كل من مارسيه(Marcy) ولويكي(LEWICKI) وقوتييه (GAUTIER)[12] ويستدل روبانيكس على صحة مذهبه هذا، بكلام لأبي القاسم يزيد بن مخلد، حين سأل عن رجل من تلاميذه، فقيل له تزوج، فقال:« ليبلغني موت أحد من التلامذة أحب إلي من تزوجه، فقالت له زوجته "الغاية" فلما تزوجت أنت إذا، فقال لها لو علمت أين كانت مسألة ليست عندي لشددت رحلي على سجلماسة وما أخاف أن يعذبني الله إلا على الجهل»[13] العجيب في الأمر أن الرواية في حد ذاتها تتضمن الرد على هذا الادعاء، إذ يظهر واضحا أن

الشيخ يؤكد على سبق فكرة طلب العلم على الزواج، وليس نفي الفكرة من أساسها، ولو كان الأمر غير ذلك لما تزوج أصلا، فالعزابة لا يستغنون عن الحياة بل يجعلونها وسيلة إلى الآخرة[14].

ج- معنى الحلقة:

جاء في ابن منظور: « الحلقة كل شيء استدار، كحلقة الحديد والفضة...، الجمع حلاق المتفرغة لا يدرى أيها طرفها، يضرب مثلا للقوم إذا كانوا مؤتلفين، كلمتهم وأيديهم واحدة لا يطمع عدوهم فيهم ولا ينال منهم، ...و تحلق القوم جلسوا حلقة حلقة»[15].

وعند الإباضية الوهبية هو اجتماع أشخاص أو طلبة على شكل دائرة..حول أستاذ، في مجلس ديني (عزاب)، متكون من اثني عشر عزابا (ناسك، فقيه)، ودون أن يتركوا ثغرة بينهم، لأن الثغرات تفرح الشيطان وتفسح له المجال للدخول[16].

ومما سبق يتضح لنا أن السيرة هي نظم أو طريقة أو قوانين يسير عليها المجتمع الاباضي، وقد ظلت هذه القوانين شفهية لأسباب أمنية، يحفظها مشايخ الاباضية حتى بداية القرن الخامس، حيث قام العالم الاباضي محمد بن بكر بن أبي بكر بتدوينها سنة (409هـ/1018م)، لتتطور من سيرة العزابة إلى سيرة الحلقة، ثم إلى نظام العزابة، وهو الهيئة المشرفة على سير حياة المجتمع الاباضي لكل بلد من بلدان الاباضية، ومن سير الحلقة أي نظمها وقوانينها، إلى نظام الحلقة، وهو النظام الذي وحد سيرة العزابة في كامل المواطن التي يقطنها الاباضية، وتجدر الملاحظة، أن كل تسمية تعبر عن مرحلة تاريخية معينة.

2- **جذور نظام العزابة :** يمكننا تقسيمها إلى مرحلتين:

أ- المرحلة الأولى: تعود إلى طور الكتمان الأول بالبصرة، الذي تميز فيه النشاط الاباضي بانعقاد مجالس سرية، عرفت بمجالس الشيوخ وهي مجالس خاصة، ذات طابع سياسي، تدرس فيها السياسة العامة للحركة، وكان هؤلاء الشيوخ يمثلون

القيادة الفعلية للتنظيم في مسلك الكتمان، أما النوع الثاني من المجالس فيعرف بمجالس العامة، وهي مفتوحة لجميع أتباع الحركة ذكورا كانوا أو إناثا، وهي إطار لتجميع الأتباع وتوجيههم بشكل غير مباشر، واستقطاب المتعاطفين مع الحركة، حسب الخطة المسطرة من طرف مجلس الشيوخ، أما النوع الثالث من المجالس، فهي مجالس طلبة العلم، وتعتبر ذات أهمية بالغة لكونها الإطار الذي تجسد فيه خطط القيادة العامة(مجلس الشيوخ) بشكل مباشر ودقيق، وأهمها دراسة العقيدة الاباضية والتدريب على بث الدعوة، ولذلك فقد كانت تتم في سرية تامة، فتعقد في سراديب ويحضرها الطلبة متنكرين في ملابس نسائية، أو كتجار وعمال[17]،وقد انتقل هذا التنظيم إلى المغرب الإسلامي على يد سلمة بن سعد وحملة العلم في النصف الأول من القرن الثاني الهجري(8م) وانتشر في عدة مناطق، دل على ذلك ما روي عن أبي خليل اليدركلي في قوله لتلاميذه:« سيروا إلى الحلقة حيث كانت يا كسالى، فإن رجلا قد سار من الجبل إلى فزان وإلى غدامس وإلى الساحل، رغبة في الحلقة»[18].

أما في مسلك الظهور قد عرفت هذه المجالس نوعا من التطور والاستقلالية[19]، فمجلس الشيوخ ظل موجودا على عهد الدولة الرستمية، وكان يشرف على تعيين الإمام إلا أن دوره كان صوريا[20]، لكنه بدأ يستعيد مكانته منذ وقعة مانو (283هـ/ 896م) حيث فكر الشيخين أبو القاسم البغطوري وأبي محمد عبد الله بن محمد بن الخير بجبل نفوسة، في نظام يحفظ كيانهم، دون أن يعرضهم لهجمات السلطان[21] ولكن هذا المشروع ظل منحصرا في نطاق الجبل، وبعد سقوط الدولة الرستمية، ودخول الاباضية في مسلك الكتمان، أصبحت ورقلة وسدراتة تدار من طرف مجلس الأعيان، حتى القرن الخامس الهجري(11م)[22]، ويستشفّ من بعض الروايات الاباضية كون مجلس الشيوخ قد استعاد فعاليته ونشاطه، بعد وصول الإمام يعقوب بن أفلح إلى ورقلة، حيث أمر

أصحابه بالتفرق، لأن ملكهم قد زال إلى يوم القيامة، ورفض فكرة العودة إلى الإمامة العظمى قائلا:« لا تستتر الجمال بالغنم»[23] وفي ذلك دعوة صريحة للدخول في كتمان دائم، وهو ما جعل البعض يعتقد أن يعقوب بن أفلح هو أول من فكر ودعا إلى تأسس نظام العزابة[24]، ويبدو واضحا أن ما ذهب إليه يعقوب بن أفلح، يتفق تماما مع الفكرة التي ذهب إليها الشيخين البغطوري وعبد الله ابن الخير قبل ذلك بثلاث عشر سنة خلت، وإن كنا لا نملك أي دليل على مدى تأثر يعقوب بن أفلح بهما في مذهبه هذا، وإذا كانت الفكرة قد لقيت صدى لدى مشائخ وارجلان وغيرهم من الأوساط الاباضية، فإنها لم تبلغ درجة الإجماع لدى المشائخ، لأن الكثير منهم بقي تواقا للعودة إلى مسلك الظهور.

ونعثر أيضا على رأيين آخرين ينسبان تأسيس هذا النظام إلى شخصيتين متميزتين، ظهرتا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري(10م)، هما سليمان بن زرقون ويزيد بن كيداد، الأول إباضي وهبي والثاني إباضي نكاري، والمثير للاهتمام أن كلاهما تتلمذ في حلقة ابن الجمعي بسجلماسة[25]،وقد جاء هذا العالم الاباضي من المشرق منتحلا التجارة، لكن النشاط الدعويّ الذي قام به بين توزر وسجلماسة حتى وافاه أجله، يثير الشكوك حول طبيعة المهمة التي قدم من أجلها، ومدى تأثيره في نشاط الرجلين فيما بعد، ويذكرنا بقدوم سلمة بن سعد إلى إفريقية في نهاية القرن الأول الهجري(7م) والنصف الثاني من القرن الثاني الهجري(8م).

فبينما ركز سليمان بن زرقون على العمل التربوي، فأسس حلقة بقسطيلية بعد عودته من سجلماسة، فتأسست جهوده على التدريس ونسخ الكتب، وإبداع تقاليد جديدة (سير) لم تكن معروفة من قبل، كالخطة والهجران، والتي صارت من أهم قواعد الحلقة التي أسسها عبد الله محمد بن بكر أوائل القرن الخامس الهجري(11م)[26]، أما أبو يزيد الذي كان في البداية من الاباضية الوهبية، ثم تحول

إلى المذهب النكاري، فقد ركز على العمل الثوري بعد عودته إلى تقيوس بضواحي قسطيلية، فأسس حلقة للعزابة، لا نعلم عن سيرها سوى كونها مجلسا يضم شيخا واثني عشر عزابيا من أهل الهيبة والوقار، والأرجح أن ورود كلمة عزابة لأول مرة في كتب السير، جاء في معرض الحديث عن حلقة أبي يزيد، إظافة إلى العدد اثني عشر، الذي يشبه عدد أعضاء الحلقة عند الوهبية، هذين الأمرين جعلا الأستاذ لويكي(Lwicky) يعتقد أن أبا القاسم وأبو خزر وهما من تلاميذ سليمان بن زرقون، عندما نظما حلقتهما السرية إنما كانا متأثرين، بحلقة أبي يزيد[27]، لكن المتتبع للأحداث اللاحقة، يستنتج أن التكوين الذي تلقاه ابن زرقون وأبو يزيد كان لنفس الهدف، وهو تأسيس إمامة الظهور من جديد، غير أن عمل أبي يزيد امتاز بالتسرع فلم يجد من يوافقه عليه من الوهبية، فتحول إلى النكار في محاولة منه لإنشاء إمامة إباضية على المذهب النكاري، عكس عمل ابن زرقون، الذي امتاز بإعادة البناء القاعدي للمذهب، قبل محاولة تأسيس إمامة الظهور في عهد تلميذيه أبي القاسم وأبو خزر.

وبالحامة من بلاد الجريد بتونس، واصل أبو القاسم وأبو خزر عملية البناء الذاتي التي بدأها شيخهم ابن زرقون، وتمكنا من تأسيس حلقة، جمعت محاسن حلقة ابن زرقون وابن كيداد، فكان الطلبة يتعلمون القرآن وعلم الحديث وعلم الأصول وعلم اللغة العربية والسيرة النبوية الشريفة وأخبار الأولين من أسلافهم الاباضيين، كما أضاف الشيخ أبو القاسم سيرا (نظما) جديدة لحلقته، كالحضور إلى الدرس في أوقات محددة ومعينة، وتناول الطعام بشكل جماعي في وقت محدد، ومنع التلاميذ من الزواج حتى إتمام دراستهم، وابتدع نوم الهاجرة (النوم وقت الضحى)، صلاة الطلبة بشكل فردي، حتى لا يفاجئهم العدو فيقتلهم جميعا، التنقل إلى البادية في أوقات معينة، خاصة في فصل الربيع، للترويح عن النفس، والدعوة والتوجيه والإرشاد الاجتماعي[28]، وقد لقي هذا النظام الشبه

عسكري، ما يشبه الإجماع عند المشائخ في مختلف التجمعات الاباضية، وهو ما أثار مخاوف الخليفة الفاطمي المعز الذي اعتقد أن الهدف منه هو التحضير للثورة، فأصدر الأمر بقتل أبي القاسم، وهو ما عجل بثورة الاباضية قبل الأوان، وذلك بالرغم من معارضة الشيخين أبو صالح اليرساني وأبو محمد ويسلان، مما جعل الاباضية تتلقى ضربة جديدة في باغاي سنة (358هـ/969م)[29]، والواضح أن الهزيمة الجديدة قد قطعت الجدل الذي كان قائما داخل التجمعات الاباضية، حيث أعادت الأوضاع إلى ما كانت عليه من ضعف بعد وقعة مانو، وفصلت في الأمر لصالح القائلين بضرورة دخول الاباضية في كتمان دائم، وجعلت المشائخ يقتنعون بما ذهب إليه البغطوري وابن الخير ويعقوب بن أفلح منذ ما يقارب السبعين عاما.

لقد كانت باغاي حقا مانو ثانية، فقد عرف المعز كيف يصيب الاباضية في مقتل، فبعد التخلص من أبي القاسم، اصطحب معه أبا خزر إلى مصر، كونه الشخص الوحيد القادر على القيام بنفس العمل الذي قام به أبو القاسم، لما يتمتع به من مكانة علمية مرموقة واحترام كبير بين مختلف التجمعات الاباضية، وقد كان يقول متحسرا وهو في مصر:« والله لا آسف على شيء فاتني بالمغرب إلا إفادة طلبة أهل الدعوة...»[30].

ب- المرحلة الثانية: في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (**10م**) واصل أبو نوح جهود شيخيه أبي القاسم وأبو خزر فكانت له حلقة في وارجلان وإفريقية، لكن جهوده لم تثمر مثل سابقيه، بسبب تغير أهل المذهب وقلة المساعدة خاصة بعد وفاة الشيخ جنون بن يمريان بوارجلان، وهو ما جعله يهجر تلك الأوطان إلى زويلة وبها يقضي بقية أيامه بعد أن أيس منها، ومن السير التي أضافها إلى الحلقة والتي نجدها في حلقة تلميذه أبي بكر، ختمة الغداة وختمة العشاء[31] ورغم عدم امتلاكنا لمعلومات كثيرة عن هذه الحلقة وسيرها، فالظاهر أن أسلوب أبي نوح قام على طريقة التربية العامة والوعظ والذكر لا على التنظيم، فكان كلما غادر منطقة

ثم عاد إليها وجدها قد تغيرت، والراجح أن هذا الأسلوب جاء استجابة للواقع الجديد للاباضية، ومع ذلك كان مقدمة وإرهاصا للسيرة المسورية التي وضعها أبوزكريا فصيل بن أبي ميسور.

تخرج أبوزكريا فصيل من حلقة أبي القاسم وأبي خزر بإفريقية، وعند عودته إلى جربة أتم بناء المسجد الذي بدأه أبوه، ثم عمل على تأسيس حلقة تجمع السير السابقة التي وضعها المشائخ من سيرة البغطوري إلى سيرة أبي نوح بن زنغيل، عرفت بالسيرة المسورية، غير أن تقدم سنه، حال دون إتمامه لهذا المشروع الضخم، ففكر في إسناد هذه المهمة لشخصية علمية بارزة، تفرس فيها القدرة على إتمام هذا العمل، هو عبد الله بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي، والظاهر أن طريقة أبي زكريا، هي الأخرى اعتمدت على الوعظ والإرشاد في المسجد، غير أنها تميزت بالتأثير الشديد، حيث استفاد أبوزكريا من العمل الذي بدأه والده، ولما تميز به هذا الأخير من حكمة بالغة، وتركز عمله في نطاق ضيق بجربة[32]، فما كان منه إلا أن أرسل ابنيه زكريا ويونس وابن أخته أبي بكر بن يحي وغيرهم من تلاميذه النجباء للبحث عن تلميذه أبي بكر، لمطالبته بتكوين نظام يضمن وحدتهم، وأمرهم بمرافقته ولو كان منشغلا بأمور الدنيا، فصادفوه بتقيوس قادما إليها من القيروان وقاصدا تاجديت لطلب العلم من أبي عمران موسى بن زكريا، فبلغوه وصية أستاذه، فرفض لاعتقاده أن الوقت لم يحن بعد للشروع في الجزء التطبيقي من الخطة التي يبدو من السياق التاريخي أنها مرسومة بين الأستاذ وتلميذه منذ وقت طويل.

درس محمد بن أبي بكر في حلقة أبي القاسم وأبي خزر، كما تتلمذ في حلقة أبي نوح بن زنغيل وحلقة أبي زكريا فصيل، فسمح له ذلك بالإطلاع بشكل مباشر على سير الحلقات الثلاث، التي تعتبر الأهم منذ سقوط الدولة الرستمية، وبعد استشارة واسعة لشيوخ الاباضية بنفوسة وجربة، أسس حلقته التي عرفت باسم السيرة المسورية البكرية سنة (409هـ/1018م)، في غار التسعي أو التسعر[33]

وتميزت حلقة أبي بكر بكثرة تنقلاتها بين مختلف التجمعات الاباضي، حتى عرف صاحبها عند العامة بسيدي محمد السايح، كما تجسد فيها مفهوم التقنين، لكل تصورات وسير المشائخ من قبله، فأسس نظاما تربويا تعليميا، يهدف إلى تكوين النخب والصفوة في المجتمع، فكانت سيرته بحق، نقطة التقاء لسير من سبقوه، ومصبا للتراكم التاريخي والفكري الاباضي منذ سقوط الدولة الرستمية، وظلت كذلك إلى أن التحم النظام بالمسجد، ليتحول إلى نظام اجتماعي، غرضه تنظيم النخب وتوجيه المجتمع، وكان ذلك على يد أبي زيد عبد الرحمان بن المعلى[34] بتوقرت في النصف الأول من القرن (6هـ/12م)، وقيل نرواس بن يوسف[35] حيث عاد من الحج، فوجد أصحاب أبي بكر يصلون في غار"أجلو" فلامهم على ذلك، وبنى مسجدا نقل إليه النظام[36].

3- تطور سيرة الحلقة إلى نظام الحلقة (العزابة):

تميزت السيرة الاباضية في الفترات الأولى من تأسيس المذهب الاباضي، بمرونة كبيرة سمحت له بالتكيف مع مختلف المستجدات والتحديات، التي اعترضت سير المجتمع الإباضي نحو إمامة الظهور، وتعلل تلك المرونة بفكرة الجمع بين مبدأي القعود والخروج ، الذين تم تفصيلهما في سيرة مسالك الدين، وهي الوضعيات السياسية الأربع التي يمر بها المجتمع بين حالتي الضعف والقوة، والتي أثبتت نجاعتها في عدة مناسبات، حيث انتقل المجتمع الإباضي من مسلك إلى آخر بنجاح كبير، سمح له بتجسيد أهم أهدافه على الأرض، وهو الانتقال إلى مسلك الظهور، وتأسيس الإمامة الرستمية بتيهرت سنة (160هـ/ 777م).

غير أن هذه السيرة سرعان ما فقدت بريقها، بعد سقوط الدولة الرستمية على يد أبي عبد الله الشيعي سنة (296هـ/909م)، حيث فشلت كل المحاولات التي قام بها الإباضية طيلة قرن من الزمن للعودة إلى مسلك الظهور، وهو ما دفع منظري الفرقة لابتداع سير جديدة أكثر مرونة، أبرزها سيرة الحلقة أو العزابة، التي

تعبتر أبرز سيرة وضعها شيخ إباضي في مرحلة الكتمان الأخير، وهي التي ضمنت للمذهب بقاءه إلى يومنا هذا، وهي السيرة التي تحكمت في تطورها عدة أسباب، نبينها فيما يلي:

أ- **أسباب سياسية:** ارتبطت نشأة نظام العزابة، بعدة ظروف وأحداث تاريخية كبرى، أثرت بشكل مباشر في الفكر الاباضي، الذي تفاعل معها في اتجاه جديد، تمثل في حفظ الجماعة الاباضية من التمزّق، ومذهبهم من الاندثار، ومحاولة إبقائه صامدا أمام محاولات التذويب والإغارة[37] ومن أبرز هذه الأحداث:

*- معركة مانو (283هـ/896م)، التي دارت رحاها بين الجيش الأغلبي الذي كان يقوده أبو بحر بن أدهم، وبين أهل نفوسة، الذين اعترضوا طريقه بين قابس وطرابلس، في عشرين ألف جندي، لكن الأغالبة تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالنفوسيين، فقتلوا منهم 12عشر ألفا، من بينهم (400) أربعمائة عالم، كما أسر منهم ثمانين عالما، قتلوا عن آخر هم، ولم يكتفي الأغالبة بذلك بل هاجموا منطقة قنطرارة، وقبيلة نفزاوة، وقتلوا من كان بها من العلماء وشيوخ المذهب، سنة (284هـ/897م)، ولم يستطع أبو حاتم تقديم يد المساعدة لنفوسة لأنه كان منشغلا بحصار عمه يعقوب في تاهرت [38].

*- انقراض الدولة الرستمية في الجزائر، على يد أبي عبد الله الشيعي سنة (296هـ/909م)، وما أعقبه من متابعات للتجمعات الاباضية في أريغ ووارجلان وجبل نفوسة[39]، وكان الهدف هو منعهم من إعلان الإمامة العظمى والعودة إلى مسلك الظهور.

*- القضاء على ثورة أبي يزيد الاباضي النكاري، المشهور (صاحب الحمار)، بكل قسوة، من طرف القاسم بن عبيد الله الإمام الفاطمي،سنة (338هـ/969م)، وتعد هذه الثورة محاولة جادة من طرف أبي يزيد لتأسيس دولة مسيرة من طرف

جماعة العزّابة النكار، المكون من اثني عشر عضوا، مما جعل البعض يعتقد، أن أبا يزيد هو المؤسس الحقيقي لحلقة العزّابة[40].

*- انهزام الاباضية في معركة باغاي، ضد المعز لدين الله سنة (358هـ/969م)، وتعتبر هذه الثورة آخر محاولة يقوم بها الاباضية للعودة إلى مسلك الظهور، وبعدها ركنت الاباضية إلى الكتمان[41]، كما قام مشائخهم باتخاذ مجموعة من الإجراءات الوقائية، فأمروا أتباع المذهب بالتوجه إلى المناطق النائية الصحراوية، حتى يكونوا بعيدين عن مناطق نفوذ الشيعة الفاطميين، بينما تفرغ المشائخ للتفكير، في إيجاد حل يضمن لهم العيش في إطار المبادىء الاباضية، مع المحافظة على الكيان الاباضي من الذوبان والانقراض.

غير أن المتمعن في الأسباب السالفة الذكر، يدرك أن هذه الظروف كانت سائدة، حتى في المراحل السابقة لقيام الدولة الرستمية، ومع ذلك فهي لم تحد من النشاط والحيوية التي ميزت المذهب، قبل تأسيس الدولة الرستمية، وبالتالي فإنه لا يمكننا أن نهمل الأسباب الذاتية، والتي تعتبر في رأينا أكثر أهمية من الظروف السياسة، في تكوين مقاربة أكثر موضوعية لأسباب نشأة نظام العزابة.

ب- أسباب ذاتيـة: ونقصد بها، أسبابا في الفكر الاباضي، وأسباب في العقيدة، وأخرى في المذهب والمجتمع الاباضي نفسه، وفيما يلي عرض لأهمها:

*- تميزت الفترة السابقة لتأسيس إمامات الظهور الاباضية مشرقا ومغربا، بفترة سرية طويلة نسبيا، اعتمدت على مبدأ تخريج الصفوة، فبرز فيها دعاة مقتدرون[42]، تتلمذوا على يد مؤسسي المذهب، فكان ذلك سببا في شعورهم بالتحرر الفكري، فأبدعوا وأضافوا أنساقا ومبادىء، إلى الفكر الاباضي اعتبرت حلولا لمعضلات واجهها المذهب في مرحلة التأسيس، أو تطورا هاما ساعد في بلورة مسالك الدين الاباضي، وتكيفه بامتياز مع مختلف الظروف، حتى اعتبرها الاباضية سيرا(سنّة، طريقة، منهج) لا محيد عنها[43]، فتحولت مع مرور الزمن إلى

قوالب فكرية، أفرغتها التطورات والتقلبات السياسية، وضعف أهل المذهب من محتواها، خاصة في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة الرستمية.

*- اعتقاد الاباضية أن الدولتين الأغلبية والفاطمية، لا تتبعان أحكام الإسلام، ولا تعملان بها، وبالتالي فإن الأسباب العقدية تشكل أحد أهم العوامل الدافعة بمشائخ الاباضية إلى التفكير في وضع هذا النظام، الذي يعتبر بمثابة إمامة صغرى وذلك من باب ما لا يدرك كله لا يترك جله، هذا النظام الذي يحفظون به أحكام الله في مواطنهم، ويسيرون به الأمة في الوجهة الصالحة، دون أن يلتجئوا إلى إعلان دولة جديدة، أو يتعلقوا بدولة ظالمة مستبدة[44].

*- حالة الضعف التي وصل إليها المذهب في القرن الرابع الهجري، وتحول الكثير من الاباضية إلى مذاهب أهل الخلاف على حد تعبير المصادر الإباضية، حيث شهد تراجعا كبيرا أمام المذهب المالكي، الذي بدأ يبسط نفوذه بشكل واضح على مختلف مناطق الشمال الإفريقي، مما جعل الشيخين أبو نوح بن زنغيل وأبو زكريا بن أبي مسور، يتخوفان من انقراض المذهب، فأوفدوا جماعة من الطلبة إلى العالم محمد بن أبي بكر، الذي أسس نظام العزابة الذي حفظ جامعة الاباضية في شمال إفريقيا[45].

*- حال الضعف التي أصبح عليها المجتمع الاباضي، ولكي نثبت صحة هذا الكلام سنقوم بمرافقة العالم أبي نوح سعيد بن زنغيل في الجولة التي قام بها بين مختلف التجمعات الاباضية في القرن الرابع الهجري، كما يرويها الدرجيني، فقد كان أبو نوح فارا من أبي تميم ومتخفيا ببلاد وارجلان، حتى خف الطلب عليه، فقرر العودة إلى وطنه بقسطيلية، فلما وصلها:« وجد البلاد قد تغيرت والصدور قد تنكرت، فندم على فراق وارجلان، ولامه أصحابه حيث لا ينفع الندم..، فإنه كان قد قصد في رجوعه، إصلاح ما يخشى فساده، فوجد الفساد عم ببلاده، فكان مقامه حينا بإفريقية وحينا قسطيلية..»[46] وقد أفلحت جهوده في إعادة بعث

المذهب بقسطيلية وإفريقية، وقنطار، ولكن وفاة الشيخ صالح بن جنون بن يمريان، وما بلغه من فساد أهل وارجلان جعله يفكر في العودة إليها، وفي طريقه إليها مرّ بمنطقة سوف، فخرج إليه أهلها واستقبلوه خير استقبال، ثم واصل طريقه فمر ببلاد بني ينجاسن الواقعة بضواحي منطقة ريغ، ومنها إلى وارجلان، وكانت تسمى في ذلك الوقت بلاد أهل الدعوة، لكثرة من كان بها من الاباضية، لكن أبا نوح صدم بحال الضعف الشديد الذي وجد عليه أهلها، فأقام عندهم مدة من الزمن يحاول إصلاح ما انثلم من المذهب ولكن بدون جدوى، فخرج من عندهم آسفا، وتوجه إلى تينماطوس بضواحي الجبل، فتزوج من امرأة اسمها أم المؤمنين، وبعد مدة رحل إلى بني زلغين ومنها إلى زويلة التي كان بها أقوى تجمعات الاباضية في القرن الرابع الهجري، فطاب له بها المقام[47]، والذي يستفاد من هذه الرواية، هي حال الضعف التي وصلت إليها التجمعات الاباضية في القرن الرابع الهجري، بسبب الجهل بالمذهب وقلة المشائخ الاباضية، حتى اضطر عالم كأبي نوح بعد تجاوزه المائة سنة، أن ينطلق في رحلته الشاقة من إفريقية حتى زويلة الواقعة في المناطق الداخلية بأقصى الشرق الليبي، حتى قال مشتكيا:<<ليس في بدني عظم إلا وهو واجد ألما>>[48].

ومجمل القول أن استمرار الملاحقات والمتابعات والمحن، على المذهب الاباضي بسبب المنهج الثوري الانقلابي الذي تبنته الاباضية منذ تأسيسها، مع مظاهر التهرم التي طبعت التجمعات الاباضية في القرن الرابع الهجري بسبب النشاط الثوري المستمر منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري، حيث استنفذ المذهب مادة طاقته المحركة (المشائخ والعلماء)، إما بالموت الطبيعي، أو في الثورات والمتابعات أو بالقتل، ونظرا لهذه التطورات الخطيرة، والظروف الجديدة، اقتنع مشائخ المذهب باستحالة نجاح أي محاولة للعودة إلى مسلك الظهور، عن طريق منهج الخروج، الذي يتلقى الإباضية بسببه في كل مرة ضربات قوية

ومتواصلة، تزيدهم ضعفا ووهنا، ولعل هذا ما قصده أبو خزر بقوله بعد معركة باغاي: «كأنا عجّلنا بالتلامذة فاستقتلناهم»[49].

لقد حاولنا خلال هذه السطور تسليط الضوء على الفترة الممتدة من سقوط الدولة الرستمية (296هـ/ 909م)، إلى تأسيس نظام العزابة سنة (409هـ/ 1018م)، والتي استغرقت حوالي مائة وثلاثة عشر سنة، استطاع خلالها المجتمع الإباضي التغلب على حالة الضعف الشديد التي انتابته وهددت وجوده بعد سقوط كيانه السياسي، على يد أبي عبد الله الشيعي، مثبتا بذلك قدرته على الاستمرار والتكيف مع مختلف المستجدات وأصعب التحديات بفضل سيرة الحلقة، أو نظام العزابة الذي أصبح معلنا منذ مطلع القرن الخامس هجري، وعلى العكس من ذلك فقد انقرض المدراريون والأغالبة بمجرد سقوط كياناهم السياسي، بينما استمر المجتمع الإباضي إلى يومنا هذا.

وقبل أن نختم هذا المقال، ينبغي لنا الملاحظة أن سير(نظم) الحلقة بعد نهاية الإمامة بتاهرت، تميزت بالبحث عن الجيش الاباضي الذي يستعيد أمجاد الدولة الرستمية، لكنها بعد معركة باغاي صار هدفها البحث عن المجتمع الاباضي نفسه، وبانتقال نظام العزابة إلى المسجد، تنتهي مرحلة البحث عن الذات واستعادتها، ليبدأ العهد الذهبي للحلقة (المدينة الدولة)، الذي يمتد حتى نهاية المرحلة العثمانية.

---

[1] -ابن منظور(محمد): لسان العرب المحيط، إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي، د ط، دار لسان العرب، بيروت، 1970م ، ج4، ص ص.389-391.

[2] - المزاتي (أبو الربيع): السير(مخطوط)، مكتبة أوزكري، بني يزقن ، ورقة.17.

[3] - الجعبيري (فرحات): نظام العزابة عند الاباضية في جربة، المطبعة العصرية، تونس، 1975م، ص.318.

[4] - حواحة(عبد العزيز): الضبط الاجتماعي في وادي ميزاب ومعوقاته، دراسة سوسيو أنتروبولوجية لنظام العزابة من خلال مواقف الشباب(حالة قرية بني يزقن)، معهد علم الاجتماع، بوزريعة، الجزائر، 1999م ، ص.130.

[5] - سورة سبأ، الآية 3.

[6] – ابن منظور(محمد): المصدر السابق، ج1، ص ص.595-598.

[7] – الدرجيني(أبو العباس): طبقات المشائخ بالمغرب، د ط، تح إبراهيم طلاي، د ط، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974م ، ج1، ص.4.

[8] – أبوزكريا(يحي): سير الأئمة وأخبارهم، تح عبد الرحمان أيوب، د ط، الدار التونسية للنشر، 1405هـ/1985م ، ج1، ص.171.

[9] – حول هذه النقطة أنظر: حجازي(عثمان): تطور الفكر التربوي الاباضي في الشمال الإفريقي من القرن الأول حتى القرن العاشر(95-928هـ/713-1520م)، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1421هـ/2000م ، ص ص.147-148.

[10] – الدرجيني(أبو العباس): المصدر السابق، ج1، ص.3-4. وكذلك، عبد الكافي(أبي عمار): السير، تحقيق حاج سعيد مسعود، د ط، ص.10.

[11] – معمر(يحي): الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، نشأة المذهب الاباضي، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1384هـ/1964م ، ص.95.

[12] – - Marcy (George) : Le Dieu des Abadites et des Bergwata, in Reveu AFRICAINE, Hespéris ; Vol. 22. (1936).p p33-56.
-Lewicki (Tadeuse) : survivance chez les berbères médiévaux d'ère musulman de cultes enciénes et de croyances painnes-FOLIA ORIONTALIA- Vol.8. (1966),-p p.5-40.

[13] – أبوزكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص.195.

[14] – أسماوي(صالح): العزابة ودورهم بالمجتمع الإباضي ميزاب، (رسالة ماجيستير لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ)، إشراف إبراهيم فخار، قسم التاريخ، بوزريعة، الجزائر، 2003م ص ص.10-11.

[15] – ابن منظور(محمد): المصدر السابق، ج10، ص ص.61-62.

[16] – Lewicki(Tadeuse):Halka, in, Encyclopédie de l'Islam, nouv., éd, Etablie avec le Concours Des Principaux Orientalistes, Tvd, 3, Leiden E.j. Brill, Paris, 1960, p.97.

[17] – الدرجيني(أبو العباس): المصدر السابق، ج2، ص ص.235-236. وكذلك: الشماخي(أحمد): المرجع السابق، ج1، ص ص.90-108.

[18] – البغطوري(مقرين): سير مشائخ نفوسة، (مخطوط) مكتبة أبي إسحاق، غرداية ، ص.84.

[19] – أصبحت مجالس العامة تعقد بشكل علني في المسجد، بينما لم يكن هناك مكان معين لحلقات طلبة العلم، فقد تعقد داخل المسجد أو في فحص المسجد أو منزل أحد العلماء أو تحت الشجرة، ويحدد المكان حسب الهدف المتوخى من الحلقة، ولتفاصيل أكثر يمكن العودة إلى هذه النقطة في، أبو زكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص.136. وكذلك، الوارجلاني(أبو يعقوب): المصدر السابق، ج2، ص ص.13-14.

[20] – Inconnu: Les ibadites Chassés De Tahert Fuient Au Désert 209/909, (B/I.8).

[21] - الجعبيري(فرحات): نظام العزابة...، ج1، ص.24.

[22] - Bouslama(Kamel): Cedrata boulevard de l'ibadisme, tiret de la bibliothèque "ozakri", boite B/I/08 Beni Yesguen, (G/I.09).

[23] - أبوزكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص.179.

[24] - - Gouja(Moncef): la théologie ibadites histoire gènes formation et formulation définitive, thèse de doctorat de 3ème cycle, directeur d'études, Dominique sourdel, université de paris, Sorbonne, 1986, p.206.

[25] - الدرجيني(أحمد): المصدر السابق، ج1، ص ص.109-111.

[26] - خليفات(عوض): النظم الاجتماعية...، ص ص.20-21.

[27] - Lewicki(Tadeuse):Halka ..., p.100.

[28] - الدرجيني(أحمد): المصدر السابق، ج1، ص ص.120-121.

[29] - أنظر أخبارها لدى: أبوزكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص.201 وما بعدها.

[30] - الدرجيني(أحمد): المصدر السابق، ج1، ص.141.

[31] - الدرجيني(أحمد): المصدر السابق، ج1، ص ص.155-156.

[32] - اسماوي(صالح): المرجع السابق، ص.122.

[33] - ويقصد بالتسعي العام 409هـ الذي تأسست فيه الحلقة، أما التسعر ففيه إشارة إلى سنة 413هـ/1022م وهي السنة التي وقعت فيها معركة الأبراج، وكان تأسيس الحلقة في "تسين يسلي" وهي بلدة اعمر" حاليا بالقرب من مدينة تقرت، جنوب شرق الجزائر حاليا. أنظر: الدرجيني (أحمد): المصدر السابق، ج1، ص.169. وكذلك، بابا عمي(محمد) وآخرون، معجم أعلام الاباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر،استشارة ومراجعة محمد ناصر، ط2، دار الغرب الإسلامي، جمعية التراث لجنة البحث العلمي، 1421هـ/ 2000م، ج2، ص ص.368-369.

[34] - أبو زيد عبد الرحمان بن المعلى، من مشائخ أربغ بالجزائر(450-500هـ/ 1106-1158م). أنظر: معجم أعلام الاباضية، ج2، ص.246.

[35] - لم أجده.

[36] - خليفات(عوض): النظم الاجتماعية...، ص.32. وكذلك الجعبيري(فرحات): نظام العزابة...، ج1، ص ص.41-46.

[37] - الباروني(سليمان): الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، تحقيق أحمد كروم وآخرون، ط3، ج2، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1403هـ/2002م ، ج2، ص ص.285-287.

[38] – الباروني(عبد الله): سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، مصر، 1324هـ، ص.19.

[39] – أبو زكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص ص.163-166.

[40] – Lewicki(Tadeuse):Halka ..., p.99.

[41] – أبوزكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص ص. 155-156. وكذلك، الدرجيني(أبو العباس): المصدر السابق، ج1، ص 129. وكذلك متياز(إبراهيم): تاريخ ميزاب(مخطوط)، ص.127.

[42] – عبد الكافي(أبي عمار): المصدر السابق، ص ص.8- 9.

[43] – من بينها فكرة الجمع بين الخروج والقعود التي كانت من ابتكار أبي مرداس، فكرة التقية التي طبقها الإمام جابر بن زيد – حسب المصادر الإباضية-، ومبدأ الشراء.. وغيرها، وللاستزادة يمكن العودة إلى: خليفات(عوض): النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان، دون طبعة، (سلطنة) عمان، 1982م ، ص.94.

[44] – معمر(يحي): نشأة المذهب الاباضي، ص.107.

[45] – الدرجيني(أبو العباس): المصدر السابق، ج1، ص ص.167-168.

[46] – الدرجيني(أبو العباس): المصدر السابق، ج1، ص ص.143-145.

[47] – الدرجيني(أبو العباس): المصدر السابق، ص ص.143-157. وكذلك: أبوزكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص ص.222-238.

[48] – الدرجيني(أبو العباس): المصدر السابق، ص.156.

[49] – أبوزكريا(يحي): المصدر السابق، ج1، ص.206.